March 2019
Vol 1 Issue 1

Manifestations of place in the Algerian novel

Dr. Hafiza Makhlouf

makhloufhafida@yahoo.fr

Issn print: 2710-3005. Issn online: 2706 – 8455, Impact Factor: 1.705, Orcid: 000-0003-4452-9929, DOI 10.5281/zenodo.10493860, PP33-40 .

Abstract: Among the names of the desert are Al-Badia, Al-Mafaza, and Al-Bayda. The word desert comes from the desert, which means the red color that tends to dust, and the desert because it is visible to whoever walks through it, due to the advantage of being level in it. What is important in this and that is not the name or the names, because “the most ridiculous thing it carries is the names,” as he put it. The poet "Nizar Qabbani", but what is important is the qualities, for they are vast in scope, their heart expands to embrace everyone, and extends itself to fill the earth with joy and sadness, severity and softness, and sorrow and grief. The desert has formed the distinctive spatial space for the Arab since ancient times, captivating the poet, inspiring the prose, and evoking... The place in their texts is evidence of the psychological, semantic and cognitive imprints that it left on their psyche, and that its culture awakened in their minds. The nature of the relationship between man and his environment is a complementary relationship, as no one denies the superiority of the environment over man, nor the superiority of man over the environment, and this is what literary texts reflect, because This relationship is what distinguishes it from other intellectual and scientific relationships. Its source is due to the practical function of human beings. Man is a productive working being, and his conscious, purposeful work is his reality and the source of all the forms of his artistic and intellectual culture that the desert was able to prove. Scientific thought defines the human essence with the interaction of the first human with his nature. The desert and his quest to control it and subjugate it by harnessing its powers and resources for the benefit of his existence, and his means in all of this is his influence by it to create a second nature, which is his nature,

and during the influence the writer’s characteristics were formed, and his talents and potentials were born.
Keywords: Manifestations, place, novel, Algerian.

جماليات العمران التراثي الصحراوي في الرواية الجزائرية

ملخص الدراسة: من مسميّات الصحراء البادية والمفازة والبيداء، ولفظ صحراء من الصحر الذي يعني اللون الأحمر الذي يميل إلى الغبرة، والبادية لأنّها تظهر لمن يسيرها، وذلك لميزة الاستواء فيها، والمهمّ في هذا وذاك ليس الاسم أو المسميات لأنّ " أسخف ما يحمل هو الأسماء" عل حد تعبير الشاعر " نزار قباني" ، وإنّما المهم هو الصفات فهي شاسعة المدّ فيها، يتسّع قلبها لاحتضان الجميع، ويمتد نفسها ليعبق الأرض فرحا وحزنا، وشدّة ولينا، وإباءً وضيما, لقد شكّلت الصحراء الحيّز المكاني المميّز للعربي منذ القدم، فأسرت الشاعر، وألهمت الناثر، واستحضار المكان في نصوصهم دليل على البصمات النفسية والدلالية والمعرفية التي تركها في نفسيتهم، وأيقظها في قرائحهم ثقافته و إنّ طبيعة العلاقة بين الإنسان وبيئته علاقة تكاملية، إذ لا أحد ينكر فضل البيئة على الإنسان، ولا فضل الإنسان على البيئة ، وهذا ما عكسته النصوص الأدبية، لأنّ لهذه العلاقة ما يميّزها عن غيرها من العلاقات الفكرية والعلمية ، يرجع مصدرها إلى الوظيفة العملية للبشر، فالإنسان كائن عامل منتج، وعمله الواعي الهادف هو حقيقته ومصدر كلّ صور ثقافته الفنية والفكرية التي تمكّنت الصحراء من إثباتها، والفكر العلمي يحدّد الجوهر الإنساني بتفاعل الإنسان الأول مع طبيعته الصحراوية وسعيه إلى السيطرة عليها، وإخضاعها بتسخير قواها ومواردها لصالح وجوده، ووسيلته في كلّ ذلك تأثره بها ليخلق بذلك طبيعة ثانية هي طبيعته، وقد تشكّلت للأديب في أثناء التأثّر خصائصه، وتولّدت مواهبه وإمكاناته.

الكلمات المفتاحية: تجليات ،المكان ، الرواية ، الجزائرية.

مقدمة الدراسة:

التأثر فعل اجتماعي، أساسه علاقة الناس يبعضهم البعض، إذ ينشأ بينهم وهم ينتجون عيشهم علاقات إنتاج تمثّل النظام الاقتصادي للمجتمع، ويعكس قضاياه وملابساته بناء فوقي ثقافي، والبيئة كيفما كانت تحدّد الفكر وتحلّله، غير أنّ البناء الثقافي ـ رغم أنّه ـ بصورة عامّة انعكاس للبناء الأساسي المادي في المجتمع ـ فإنّه ليس انعكاسا آليا، فالعلاقة بين الاثنين علاقة تأثير وتأثّر.

بالحديث عن هذا التأثر فقد ألفينا الشاعر العربي ـ في الماضي ـ تغنى بالبيئة الصحراوية كيف لا ؟ وقد كان أينما يول وجهه يجد هذا الفضاء يحيط به ويُشكّل ـ بالنسبة إليه ـ أهمّ مصادر الإبداع الفني، فينتج صورا فنية غاية في الدقّة، وصارت الطبيعة ككل ملهما للشاعر الجاهلي، ومادّة خاما ينفذ من خلالها إلى مواطن الجمال والخلق، إذ اعترف العديد من الأدباء أنفسهم بفضل الطبيعة على إنتاجهم من خلال ما رصده" ابن سلام الجمحي " في مؤلفه (طبقات فحول الشعراء) ،و"ابن قتيبة "في(الشعر والشعراء).

ولو وجهنا أنظارنا إلى الشعر العربي، وما قاله الشعراء إلى مشارف العصر العباسي، لألفينا هذه المعالم للصحراء التي تختلف كليا عن المدينة، وبفضل هذا الموروث غدا هذا الحيّز المكاني يمثّل عنصرا أساسيا في الأعمال الإبداعية الكبرى بجميع أجناسها (شعرا ونثرا)، ويؤدي دورا أساسيا في تكوين هوية الكيان الجماعي للشعوب كما يبرز المقومات الثقافية والمعرفية والفنية لكل أمّة من الأمم، وفي خضم هذه المقومات، يجد القارئ متنفّسا للبعد الجمالي الذي يلقي بظلاله على مستوى الإبداعي حين يتعدّى المحدود الجغرافي إلى اللامحدود الثقافي فتكتسي دلالاته أبعادا إنسانية متباينة.

تأثر العربي بالصحراء حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ منه، فلا يرى لغيرها بديلا ينهل منه تجارب حياته، ونمط عيشه، ويستوحي من مناظرها ويتفاعل مع متغيّراتها، يفقه نسائمها ورياحها، ويقاسى قرها وحرها ولم يرض بما ترض به الأمم ذات الهمم الضعيفة والأفكار المحدودة، بل كان طموحا متطلعا يدفعه في ذلك الفصاحة في النطق والذلاقة في اللسان، واتقاد في الذهن فهو كما قال طرفة بن العبد:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه
خشاش كرأس الحية المتوقد.

شهدت القصيدة الجاهلية صورة نمطية، استقرت عليها فترة من تاريـخ الشعر العربي، غير أننا وجدنا فيها لوحة فنية تجمع مختلف التشكيلات، وأبهر الرسومات عن الطبيعة وما تخفيه من أسرار ومعالم، كشفت عنها أقلام الشعراء الرواد كـ: امرئ القيس، وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سُلمى، فقد أعطوها بعدها الفني، كما أعطوها مضمونها الموضوعي، لاسيما في الجزء المتعلق بوصف رحلته، أو رحلة صاحبته في أعماق الصحراء، متّخذا من وصف الناقة جسرا يعبر عليه، لأنه وعلى مدار قرون أقام البدو والإبل شراكة حيوية فقد احتاج كل منهما إلى الآخر لكي يظلا على قيد الحياة، ويرسم صورا أخّاذة لظواهرها الطبيعية، وحيوانها الشارد في آفاقها البعيدة، وما يدور بينه وبين الصيادين الخارجين في طلبه، وإن اختلفوا في منهجية التصوير باختلاف شخصياتهم، ومواهبهم وموضوعاتهم وعصورهم .

ومن أدق ما وصفت به الصحراء قول المرقّش الأكبر:

ودوية غبراء قد طال عهدها
قطعت إلى معروفها منكراتها
تركت لها ليلا طويلا ومنزلا
وتسمع ترقاء من البوم حولنا
فيصبح ملقى رحلها حيث عرست
وتصبح كالدوداة ناط زمامها

وصف الشاعر الصحراء بأنها أرض واسعة الأرجاء يعلوها الغبار من كلّ جانب، وتتلاشى فيها الأصوات إذ تعرف بعريّ الفلاة، وقلة الماء والنبات، وهي الأرض المنبسطة الواضحة المعالم والآثار، لا يعتريها التّعقيد في التضاريس والأشجار، أخفقت في حماية الكثير من كائناتها للاختباء في كنفها ومناكبها، وفقدت الكثير من زهرة أحيائها الفطرية نتيجة فقدان الوعي بجمالها المرهب، وتغيّرت رؤية البعض لها، فأصبحت ملاذا لهم في حملات القتل والتنكيل.

أمّا صحراء الجزائر فهي ثاني أكبر صحراء في العالم تغطي مساحتها 84 بالمائة من مساحة الجزائر الإجمالية وهي التي تنفرد بجمالها الأخّاذ، وروعة تضاريسها وجبالها البركانية، وتمتلك منطقة الأهقار أجمل شروق وغروب في العالم بأسره، كما أنّ زائرها يأسره السكون الذي يخيّم و على واحاتها الفاتنة الشهيرة كـ: واحات تميمون وبني عباس، ناهيك عن النخيل الباسقة التي تزخر بها منطقة تاغيت السياحية، يستغلها العديد من المارة لأخذ أقساط من الراحة، وتناول وجبات الطعام، واحتساء أكواب من الشاي المعتّق، والتّعرف على أسرار مذاقه وببيوتها التي تعكس الحياة البدوية البسيطة، وتشكل محيطات الرمل بها فضاء مناسبا للاستجمام ولاسيما في ساعات متأخرة من الليل، ناهيك عن الاطّلاع على رسومات ونقوش تبرز تاريـخ الجزائر القديم الذي يصل إلى العصر الحجري .

والحقيقة أنّ صحراء الجزائر شاسعة، غير أنّ الأعمال الأدبية التي تقصت أثرها كانت جد متواضعة ولكن هناك أسماء أعلام كبيرة في الرواية الجزائرية تناولت الصحراء كحيز مكاني يهدف من ورائه الكاتب إلى إثارة البعد الدرامي و الجمالي مثل رشيد بوجدرة، الحبيب السائح، أحمد الزيواني، وتجربة عبد القادر ضيف الله، وأسماء أخرى كتبت عن الصحراء كقضية وتيمة وفضاء ولوحة .

وهكذا، فإنّ موضوع البحث سيركّز على تجليات البعد الاجتماعي والجمالي للمكان في الرواية الجزائرية وكيف رصد الأدباء الجزائريون هذه الأبعاد في مؤلّفاتهم، وتمكنّوا من الإحاطة ببعض جوانب الصحراء
الجزائرية من خلال : المكان والإنسان، العادات والتقاليد. وقد وقع خيارنا على رواية تيميمون للكاتب الجزائري "رشيد بوجدرة" لسببين رئيسيين :

- كتبت الرواية في العشرية السوداء التي عرفتها الجزائر، وكيف أنّ الروائي التفت إلى فضاء الصحراء في تلك الفترة المأساوية.
- عرض تجربة الكاتب " رشيد بوجدرة " على القارئ العربي، من خلال التعرف على "تيميون" المعروفة باسم الواحة الحمراء، وعلى قصرها البربري العتيق .

أما المنهج المتّبع في الدراسة، فارتأيت أن يشمل الوصف والتّحليل، لاعتباره الأنسب ـ في رأيي لمثل هذه المواضيع من حيث الولوج إلى عالم الصحراء، وما تنعم به من أبعاد اجتماعية وجمالية، وما تتأبطّه البيئة الصحراوية من قسوة وعناء من ناحية، ومن لين وصبر من ناحية أخرى.

لاجرم أنّ المكان مرتبط ارتباطا وثيقا بالإنسان، باعتبار أنّ الذات الكاتبة لا تبتعد عن فضائها، ولا تستطيع أن تكتشف وجودها إلاّ من خلال المكان الذي تعيش فيه، ونحن نقصد الصحراء تلك المساحات الشاسعة الملهمة التي تسحر الكاتب بخصوصيتها، وتشكيلاتها الجمالية، فيعمل النصّ الروائي على استحضارها فكريا وفنيا، وقد استرعت الصحراء الروائيين الجزائريين باللّغتين العربية والفرنسية فملأت فجوات كان مسكوتا عنها دهرا من الزمن، واستبدلت المعالم المفتوحة على الأسطورة والخرافة والتيه والصمت بمعالم مفتوحة على جمالية الهدي والإدراك، ومعرفة ما يخبّئه هذا المكان من أسرار.

عني الروائيون الجزائريون على اختلاف توجّهاتهم وآرائهم، وبغضّ النظر عن محيطهم الأصلي الذين ينتمون إليه، بتوظيف المكان ، وإعطائه مكانة مهمّة في ثنايا نصوصهم، فلم يغفلوا الحديث عن هذا الفضاء المترامي الأطراف الذي يتداخل فيه الواقع بالخيال، والقسوة باللين، والاقتران بالانفصال.

لقد استحوذ الحديث عن الصحراء على مساحات كبرى من نصوصهم، وفي ثنايا ألحكي الممتع الذي تحبل به صفحاتهم، لتكشف عن حضوره كفضاء ينبغي أن نعترف به، وأن لا نهمّشه أو نضعه قيد النسيان، وهذا الحضور أو التّوظيف يتجلّى في العنوان، واختيار الشخصيات، وفي الوقائع أو القصص السردية ذاتها الموجودة داخل النصوص الروائية، ناهيك عن لغة المكان وتاريخه، وكيف يثمل الصحراوي برمال صحرائه، ويعشق نشوة السهر بين أحضانها، كلّ هذه التفاصيل نجدها حاضرة في نصّ الروائي، باعتباره الوحيد الذي يجيد التعبير عن ذلك وغيره .

الحديث عن الصحراء، وعن جماليات المكان حضر منذ خمسينيات القرن الماضي، ولعلّ أوّل من بادر بالكتابة عن ذلك، وباللغة الفرنسية الكاتب "مالك حدّاد" من خلال عمله (سأهبك غزالة) قصة حب بين سائق شاحنة والفتاة التارقية من التاسيلي، كما وظّف الروائي "مولود معمري" الصحراء كهوية منسية وتراث أمازيغي مدفون في رمال الصحراء، وجبال الأهقار، وفي نفس السياق ذهب الروائي" الطاهر جاووت" في عمله الروائي "اختراع الصحراء" عام 1987 الذي تحدّث فيه عن أزمة الهوية وتجاذباتها، وعلاقتها بالتحوّلات السياسية، دون أن ننسى الكتابات باللغة العربية كتابات " الحبيب السايح" فاعتبر أول من اكتشف عوالم الصحراء الجزائرية عندما حتّمت عليه الأزمة المنية اللجوء إليها، فاحتوت خوفه، وأمنت روعه فأنتجت قريحته الثلاثية المعروفة، والتي تظهر شغفه بعمق المكان، وسحر المعنى، فكتب على التوالي: "ذاك الحنين" "تلك المحبة" و" تماسخت دم النسيان" وبقي صدى الصحراء في كل أعماله اللاحقة فيما بعد.

لقد نشرت رواية تيميمون مع بداية حقبة العنف والاضطراب التي عرفتها الجزائر، والتي لم تكف عن ممارسة نوع من الكتابة تزاوج بين الحكي والسرد والإبصار، وتؤلف بين المرجعي والمتخيل من أجل إنجاز بنية متخيلة للانا، وفي علاقته بتداعيات الصوت الراوي الذي يجمع بين تشكيلات متباينة داخل العمل السردي، لأنه الوحيد الذي يعلم تتابعه سواء في وصف الشخوص، أم في وصف الفضاء، إذ أنه لا يفترضها أو يستدعيها فقط وإنّما يراها حيث (يتقلص الوعي في نظرة، وتصبح الأشياء جوهرا وشكلا ولونا بدل أن تكون معنى)

(أوسكار، 1988) موظفا في ذلك لغة تجمع بين الألفاظ والمعاني لتواجهنا أساليب وتراكيب بلغت غاية من الجودة و صور ومشاهد فنية آسرة، ما يجعل القارئ مشدودا إلى هذا النوع من الأعمال.

يتجلى البناء المتخيّل للانا من خلال فعل الحكي إذ يهيمن العام على الخاص، أو بمعنى آخر يغلب فيه الجو السردي (الكلي) على الجو السردي الذاتي (الجزئي)، فنجد طابع التخييل يغطي جزءا أكبر من الرواية حتى وإن كانت ذات صلة رفيعة بسيرة ذاتية، أو بقصة عاشها من قريب أو من بعيد الكاتب "بوجدرة" في مدينة تيميمون هربا من جرائم ومجازر شنعاء كانت تستهدف المثقفين في العشرية السوداء وإن كان الكاتب لم يصرّح بذلك في عمله، وإنما رمز إليه على مستوى المسار السردي حين حديثه عن الخوف الملازم للراوي ((أقود الحافلة من خلال الليل العاتم، فأسترجع ذهني، لكن ذلك الخوف المتأصّل في أحشائي دائما مازال يقلقني، وينغّص عليّ أيا. إضافة إلى رغبة الفرار من شيء يؤرّقه ويعنّته (من حين إلى آخر تأخذني نشوة وجدبة وذهوليه كالغبطة اللاّمحدودة، كالجدبة الصوفية، لكنّني منذ الطفولة أهرب دائما من شيء ما أو بالأحرى أحاول ذلك) (بوجدرة، 1994).

ثم لا ينفك الراوي يملي سلسلة الأخبار المتعلّقة بالاغتيالات المتكررة للمثقفين التي تنشرها الجرائد المختلفة ملحا على نبرة الخوف والقلق اللتين تمكّنتا من نفسه (الكاتب الكبير طاهر جعوط يغتال برصاصتين في رأسه من طرف ثلاثة إرهابيين، وهو يقود ابنتيه إلى المدرسة) (بوجدرة، تميمون، 1994).

إذ يعيد نشر هذه الأخبار بخط بارز وغامق تعبيرا عن الخوف الممزوج بالغضب والرفض، وهو نوع من الردّ بواسطة الكتابة الغاضبة التي (يستمد متخيلها من مشاعر مرضية استعارات العنف، ويصبح الغضب ذلك الكزاز الفكي أو ذلك الهيجان المبحوح مثل الجلطة في الحلق) (GONTARD, 1981).

مردّ ذلك الهروب، وما يرافقه من خوف وقلق إلى أنّ الكاتب "رشيد بوجدرة "يتميّز بنوع من الاحترافية والإدراك الجماعي، لتداخل الأجناس الأدبية وتقاطعها، وبأن الفن الروائي يمثّل حقلا خصبا لاحتواء الحقيقة، سواء تلك الحقيقة التي ترتبط بالأحداث أو الحقيقة التي ترتبط بالشخصيات أو الكاتب ذاته أي أنّ تعبير الكاتب عن شخصيته وعن حقائقه الباطنية ليس مقصورا على الحالات التي يعمد فيها إلى تدوين قصة حياته الحقيقية قصد كشف الكاتب عن حقيقة نفسه بدون عمد، أكثر ممّا يكشف عنها متعمّدا مصرّحا بعزمه على ذلك وهذا ما يبدو من خلال ما يتبناه الكاتب في أغلب أعماله الروائية التي تتداخل في أبعادها العامة والإيديولوجية وهذا ما يؤدي بنا إلى القول بأنّ الفضاء السيري في رواية "تيميمون" ينفتح عل نوع من الحميمية والذاتية المتعلّقتين بالصوت الراوي الذي جعل من فضاء الليل، وفضاء الحافلة أفقا منسجما لا أحد يستطيع احتواءه أو السيطرة عليه إلاّ الكاتب، والقارئ يتلقى إلاّ ما يقوله، ولا يتابع مجريات الأحداث إلاّ بفكره، وهذا ما يجعل عمله أقرب إلى المذكّرات الشخصية التي ما تنفك تعلن عن مستجداتها، لا سيما عندما تعلّق الأمر بيوميات الطفولة والشباب التي تقف عندها أعماله الروائية، لقد توالت الفصول في الرواية ملحّة على هذا التأويل بإغفال التسمية، وإسقاط العنونة وحلّ محلّها الترّقيم المتسلسل من واحد إلى سبعة تماما مثل أيام الأسبوع التي يمكن للسفر أن

يستغرقه حيث تمّ الإعلان عن بداية الرحلة الروائية المتخيّلة نحو "تيميمون" (لقد غادرت الجزائر منذ أيام ليلة فقط) وكان الفصل السابع الإعلان عن اكتمال الرحلة السياحية، وتحقّق أبعادها السردية والدلالية، ومن ثمّ العودة إلى العاصمة. ينفرد فضاء الصحراء بتصوير مشاهد من خلال عيني سائح متجوّل، وليست من خلال دليل سياحي كما ذكرنا ـ وهذا هو الأهم، ولأنّ الدليل لابدّ أن يتوفّر على معرفة بهذا العالم يتخلّلها مخيال صحراوي ذو حمولة أنثروبولوجية للكون والحياة في هذا الحيّز المكاني الذي (انكسرت فيه نواميس المكان، ونواميس الزمان) (الغانمي، 2000). والذي سيؤول فيه الإنسان إلى المصير المحتّم يفضّل الكاتب الموت في الصحراء يقول الروائي (قررت آنذاك أن أدفن نفسي في الصحراء، وأترقّب فيها منيّتي لأنّها كانت تبهرني، وترعبني في آن) (بوجدرة، 1994).

وبالرغم من أنّه كان يحمل معه حبات السنور السّامة لتحقيق تلك الرغبة، كونه كان يحسّ أنّ الموت يطارده على أيدي الإرهابيين، يقول الرّاوي: (كانت قيلولاتي دبقة وقذرة ومزعجة، فيتكرّر، نفس الكابوس أثناء نعاسي فأتخيّل أنّ مجموعات من الإرهابيين المتعصّبين تلاحقني وتطاردني) (الغانمي، 2000.(

في العمل الروائي لـ "رشيد بوجدرة " نجد فضاء صحراويا يحاول الكاتب أن يؤثّثه بمشاهد وصفية ولكنّها لا تعدو أن تكون كلقطات مصورة تُشاهد لأوّل مرّة فيبهرنا بروعة المكان، ومتعة الزمان. اختار الكاتب أن يتقدّم في السرد داخل فضاء الليل، وهو على يقين أنّه يقتحم هذا الفضاء الذي صار بهيما، حالك السواد لا يمارس طقوسا سريّة، ولكنّه ببساطة يودّ أن يقوم بسفر ليلي، وغالبا ما نجد هذا التآلف الحاصل بين المكان والزمان فكأنّهما يسيران في وتيرة واحدة منسجمة، ونلفي التآلف بين البعدين الذي يفرز معالم الصمت والسحر والجمال.

لقد كتب "رشيد بوجدرة" روايته تلك سنة 1994 التي وجدها ملاذا من وحشية الإرهاب والعنف في الشمال الجزائري، ويكشف عن الهدوء والسكينة في الجوهرة الحمراء، بعيدا عن ضوضاء المدن وأصوات الرصاص والمتفجرات، ويبعث من عمق المكان بأسرار وجودية غارقة في الفلسفة والتّصوّف.

Sources And Références :

- Marc gontard. (1981). Violance of text. paris.
- Rachid Boudjedra. (1994). Timon. Algeria : Dar Al-Ijtihad.
- Rachid Boudjedra. (1994). Timon. Algeria : Dar Al-Ijtihad.
- Saeed Al-Ghanimi. (2000). The epic of the extreme borders, the desert imagination in the literature of Ibrahim Al-Kuni. Beirut.
- Taka Oscar. (1988). Voices of the novel. Casablanca, Morocco.